الاسترقاق عند الأمم وفى الإسلام
بمناسبة مرور مائة عام على إبطال الاسترقاق

كان الاسترقاق شائعا بين الأمم قبل عهد الإسلام بألوف من السنين ، فكان قدماء الهنود والصينيين والمصريين والأشوريين والبابليين والفرس واليونانيين والرومانيين وغيرهم يتخذون الرقيق من أسرى الحروب ، كما يحصلون عليه بالشراء من أصحاب النخاسة ، وهم رجال ينبثون فى بعض الأصقاع يختطفون من يقع فى حبائلهم من النساء والبنات والغلمان ، بقصد الإتجار فيهم كالماشية سواء بسواء ؛ وكانوا يعرضون سلعهم البشرية فى الأسواق ، فيتردد عليها الراغبون يقلبون هذه المخلوقات التعسة الحظ ، ولا يدعون خفيا من جسمهم إلا فحصوه ، ثم يساومون مواليهم فى أثمان ما يقع اختيارهم عليه منهم ، فيعتملونهم كما يعتملون البهائم ، ويتحكمون فى حياتهم وموتهم ، غير خاشين رقيبا ولا حسيبا ، لا من ناحية الحكومة ولا من ناحية الرأى العام .

وكانت القوانين فى هذه الأمم تعطى السادة كل حق على أرقائهم حتى حق قتلهم ؛ فكان المماليك يجلدون ويعذبون لأقل هفوة ، وكثيرا ما كانوا يقتلون لأحقر الأسباب . وكان الناس يسيغون هذه القسوة لاعتقادهم أن الأرقاء ، وخاصة السود منهم ، ليسوا من الأسر البشرية . وقد اشترك الفلاسفة مع الدهماء فى احتقار الأرقاء حتى إن أفلاطون الفيلسوف اليونانى الكبير ، وتلميذه أرسطو الملقب بأمير الفلسفة ، قررا فى تعاليمهم أن العبيد يجب أن يحرموا من الحقوق المدنية .

وقد نقل التاريخ أن الشبان فى إسبارطا من الممالك اليونانية ، كانوا يمرنون على الفتك بالأعداء فى أشخاص العبيد ، فكانوا يوقفونهم جماعات جماعات ، عزلا من السلاح ، ويأمرون شبانهم بالهجوم عليهم والتنكيل بهم ، فكانوا يقومون بما يؤمرون به فتجرى دماء أولئك الأرقاء أنهارا ، بلا داعية معقولة غير تعويد الشبان على سفك الدماء ، والتنكيل بالأعداء .

وروى أن بعض براطرة الرومانيين كان له فرقة موسيقية من المماليك ، فارتأى أن يبتر سواعد الضاربين على الآلة المسماه بالترومبيتا ، وأن تربط مضاربها فى أعضادهم لكيلا يتكلفوا ثَنْى أذرعتهم وهم يضربون عليها .

وكان نساء اليونانيين والرومانيين فى ذلك العهد محجبات ، فكان الرجال يتخذون الخصيان لخدمتهن ، وكانت تزهق أرواح الألوف المؤلفة من الأطفال الذين يعدونهم لهذه الخدمة بتأثير هذا العمل الجراحى الخطير الذى كان يزاوله رجال ليس لهم أقل علم بالجراحة وتضميد الجروح .

ولما جاءت الديانتان اليهودية والنصرانية تركت الاسترقاق على ما كان عليه ، فبقى أتباعهما عاملين به إلى نحو منتصف القرن التاسع عشر .

ولما اكتشف الأوربيون أمريكا واستعمروها ، وجدوا أنه تعوزهم الأيدى العاملة وخاصة بفلاحة الأرض ، وحفر المناجم ، فكانوا يرسلون بسفنهم إلى شواطئ أفريقا فيشحنونها بمئات من الزنوج ويعودون بها إلى أمريكا ، فيموت من هؤلاء السود من يموت فى الطريق ، فيلقون بهم فى اليم ، ويعتملون من بقى منهم فى أشق الأعمال وأشدها إرهاقا فى مقابل تغذيتهم وإيوائهم ليس إلا . أما العناية بصحتهم والاهتمام بتثقيف عقولهم ، وإعدادهم للحياة الصحيحة ، فكان لا يفكر فيه إنسان ، لأن الدهماء كانوا يعدونهم أحط من البيض من كل الوجوه . من هنا كثر السود فى أمريكا حتى ليبلغ عددهم هنالك اليوم نحو عشرين مليونا غير الذين هاجروا منهم إلى أفريقا منذ أعلن تحريرهم ، وأسسوا لهم مملكة فى شمال غينا الشمالية باسم جمهورية ليبريا ، تحت حماية انجلترا ، لا تزال قائمة إلى اليوم .

ولما جاء الإسلام نظر فيما نظر فيه من أمر العالم فى حالة الأرقاء ، فلم يرمن الحكمة إبطال الاسترقاق طفرة ، ولكنه أحدث انقلابا خطيرا لم يحدث ما يشبهه ولا ما يقرب منه على يد أى مصلح عظيم ، فقرر أن المماليك إخوان لمواليهم لهم عليهم حقوق الأخوة ، فقال عليه الصلاة السلام : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم » . لذلك منع النبى ﷺ أن يقول أحدهم : عبدى وأَمَتى فقال : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى » .

هذا تجديد فى أمر الاسترقاق لم يكن يخطر على بال إنسان فى الأرض قبل الإسلام ، وهو حد فاصل بين القسوة الجامحة وبين مخلوقات بريئة أوقعها نكد طالعها فى الأسر وليس لها غير الله من ملجأ تلجأ إليه .

ولم يقف الإسلام من عنايته بالرقيق عند هذا الحد الأدبى ، ولكنه تعداه إلى أقصى حدوده المادية ، فلم يغفل طعامه وشرابه وكسوته ، فأراد أن يساوى فيها سادته فقال ﷺ : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم : أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون » الحديث . وقال ﷺ : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناوله لقمة » وفى رواية أخرى : « إذا كفى أحدَكم مملوكُه صنعة طعامه ، فكفاه حره ومؤنته وقربه إليه ، فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناوله ، أو ليأخذ أكلة فليروِّغها (أى فليشبِّعها بالدسم) وأشار بيده ، وليضعها فى يده وليقل كُلْ هذه » .

هذا ما لم يسمع به أحد قبل الإسلام ، فإن الناس كانوا يتخذون الأرقاء تعظما وتكبرا ، فإذا أكلوا وقفوهم أمام موائدهم للخدمة ، فيصيب سادتهم من أطايب الأطعمة ويتركون لهم نفايتها . وكانوا من ناحية اللباس يختصون بأرقها وأثمنها ، ولا يسمحون لمماليكهم إلا بأخشنها وأرخصها . من أحسن ما يروى فيما يتعلق باللباس أن عليا كرم الله وجهه أعطى غلامه دراهم ليشترى بها ثوبين متفاوتى القيمة ، فلما أحضرهما له أعطاه أرقهما نسيجا وأغلاهما قيمة ، وحفظ لنفسه الآخر ، وقال له : أنت أحق منى بأجودهما ، لأنك شاب وتميل نفسك للتجمل ، أما أنا فقد كبرت ويكفينى هذا .

أما من ناحية الاعتمال فقد أوصى النبى ﷺ أن لا يكلف الأرقاء ما لايطيقون ، فقال من حديث فى حقهم : « ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم » وقال ﷺ : « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » .

وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى العوالى فى كل يوم سبت فإذا وجد عبدا فى عمل لا يطيقه وضع عنه منه .

ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلامه يسعى خلفه ، فقال له : يا عبد الله احمله خلفك ، فإنما هو أخوك روحه مثل روحك ، فحمله . ثم قال أبو هريرة : لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مُشى خلفه .

ولما استدعى عمر أمير المؤمنين إلى الشام ليمضى صلحا فى بعض بلادها كما اشترط أهلها ، كان يتناوب فى الركوب بينه وبين غلامه ، فلما قربوا من المدينة كان الدور فى الركوب للغلام ، فانتهى عمر إلى معسكره وهو يمشى وعبده راكب .

وأما من ناحية الإحسان إلى المملوكين والتلطف فى معاملتهم ، فإن الإسلام قد شدد فى ضرورة ذلك تخفيفا لحالة العبودية على العبيد ، فقال النبى ﷺ : « من ضرب غلاما له فكفارته عتقه » .

وقال عبد الله بن عمر : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله ، ثم قال : اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة » .

وقال الزهرى من أئمة الحديث : متى قلت للمملوك أخزاك الله فهو حر .

وعن أبى مسعود الأنصارى قال : « بينا أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفى : اعلم ياأبا مسعود – مرتين – فالتفت فإذا رسول الله ﷺ ، فألقيت السوط من يدى ، فقال : واللهِ للهُ أقدر عليك منك على هذا » .

ودخل رجل على سلمان رضى الله عنه فوجده يعجن ، فقال له : يا أبا عبد الله ، ما هذا ؟ فقال : بعثنا الخادم فى شغل فكرهنا أن نجمع عليه عملين .

وقال النبى ﷺ : « من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها ، فذلك له أجران » .

مِن أعجب وأعظم ما يذكر فى هذا الموطن أن الإسلام قرر أن الأرقاء يثابون على الطيبات فى الآخرة ضعف ثواب الأحرار ، ويعاقبون على جرائمهم فى الدنيا بنصف عقابهم . فخل هذا جانبا وانظر إلى ما كان يعاقب به الأرقاء على أصغر الهفوات بنصوص القوانين الوضعية .

أما الحياة الآخرة فقد كان ميئوسا منها بالنسبة لهم ، لأنهم كانوا يعتبرون مجردين من الأرواح البشرية !

ولقد حبب الإسلام فى العتق إلى حد لم يعهد له مثيل فى الأمم ، فجعل العتق جزاء فى الكفارات عن كثير من الآثام ، وحض عليه فى أحاديث كثيرة ، وسهل على المملوكين سبيل الحرية بواسطة المكاتبة ، وهى أن يكاتب المولى عبده على مال يؤديه إليه فى مقابل عتقه ، فينصرف للعمل والكد حتى يؤدى لسيِّده ذلك المال فيصبح حرا . ومن شدة رغبة الإسلام فى العتق أن جعل الله جزءاً من مال الزكاة ينفق على مساعدة الأرقاء على الخلاص من أسرهم بإمداد المكاتبين بالمال لتوفية ما عليهم .

ومن أجلّ وأكبر ما نذكره من آيات الإسلام أنه لم يوصد باب العلم فى وجه عبد بحجة عبوديته ، ولكن تركت له حرية التعلم والتبحر حتى وصل عدد كبير منهم إلى درجة الإمامة ، كبلال مولى أبى بكر ، وسالم مولى أبى حذيفة ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، وتولى كثير منهم الخطط الهامة فى القيادة والإدارة ، فولى رسول الله ﷺ بلالا المدينة ، وولى أسامة بن زيد مولاه قيادة جيش فيه أبو بكر وعمر .

وقد جرى المسلمون على هذه السنة ، فاتفق أن كان جميع الأئمة فى الأقطار الإسلامية فى القرن الأول من الموالى إلا واحدا . قال العلامة السخاوى فى شرح ألفية الحديث للعراقى : « إن هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى قال للزهرى إمام الحديث يوما : « من يسود أهل مكة ؟ فقال الزهرى : عطاء . قال هشام : بم سادهم ؟ فقال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . فقال هشام : نعم : من كان ذا ديانة حقت الرياسة له ، ثم سأله الخليفة عن اليمن ، فقال الزهرى : إمامها طاووس ، وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله أهو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول : مولى (أى أصله مملوك أو ابن مملوك) إلى أن أتى على ذكر النخعى فقال : إنه عربى . فقال هشام : الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر » .

هذه آيات إسلامية تأخذ باللب والقلب معا ، وتدل فى جملتها وتفصيلها على أن الإسلام كان يعطى الحق لأهله بصرف النظر عن ألوانهم وجنسياتهم ، عملا بقول النبى ﷺ : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » وجرى المسلمون على هذه الطريقة ، فلم يحرموا العبيد من تولى أرقى المناصب ، وقد اتفق أن تولى بعضهم الملك أيضا .

قلنا فى أول هذه المقالة : إن الإسلام أقر الاسترقاق كما أقرته جميع الأديان ، ولكنه امتاز عنها بحصر وسائله فى دائرة واحدة معقولة هى دائرة الحرب الشرعية ، أما بقية وسائله التى يجمعها اسم النخاسة فقد أبطلها وعفى على أثرها ، فلا يحل لمسلم أن يشترى إنسانا اختطفه النخاسون من بين أحضان أبويه . فكان الإسلام بذلك أول من قضى على النخاسة قبل أن يفكر فى ذلك الأوربيون بنحو ألف ومائتى سنة . فلم يبق للاسترقاق إلا هذه الدائرة وهى قابلة للضيق ، بل وللزوال أيضا على حسب الأحوال ، فقد تقل الحروب لعدم ما يقتضيها ، وقد تزول بتاتا إذا نجحت الجهود التى تبذل لاتقائها ، وربط الدول والأمم بميثاق الألفة والتعاون .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (١) .

وإذا فرضنا أن أمنية السلم العام لم تتحقق ووقعت حرب كان من نتائجها دخول المحاربين أسرى في يد المسلمين ، فإن لإمام المسلمين أن يمن على الأسرى فيهبهم لأنفسهم ويطلق سراحهم بدون أى مقابل سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى .

وعندما دعت إحدى الدول فى سنة ١٨٣٤ إلى عقد اتفاق عام بإبطال الاسترقاق كانت الدول الإسلامية على اختلاف جنسياتها أوّل الملبين لإجابة هذه الدعوة ، لأن دينها الإسلام يسعى إلى تحرير الرقيق ، بل يجعله من القربات التى يتقرب بها المسلم إلى ربه .

---

(١) سورة الأنفال : ٦١ .

هذه صفحة مجيدة من صفحات الإسلام تتمثل فيها أصول إسلامية هى أعجب ما وصل إلى علم البشر منذ خلقهم الله إلى اليوم . وأى شيء أعجب وأدل على إلهية هذا الدين من إحاطته الأرقاء وهم أضعف طوائف البشر وأحقرها فى العرف العام بهذه الحماية التى لم يسمع بمثلها فى الأرض ، وتخويله إياهم حقوقا على سادتهم ما كان يحلم بها الأحرار أنفسهم فى العهود الخالية ؟ (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص ٣٢٩ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

الأخـلاق

اختلف الناظرون قديما وحديثا فيما تناولوه من مباحث ومسائل ؛ واتسعت شقة الخلاف بينهم فيها نفيا وإثباتا ، ووجوبا وجوازا ، وإطلاقا وتقييدا ، إلا فى الأخلاق ، فقد اتفقت كلمتهم على وجوبها للفرد لصالح نفسه وللمجتمع فى جملته ، لا باعتبار أنها حلية أدبية ، ولكن باعتبار أنها ضرورة حيوية لا تستقيم حياة فردية ولا اجتماعية إلا بها . فكما أن الفرد يضيره ويفسد من أعماله أن يكون كاذبا مرائيا حسودا شريرا ماكرا ، كذلك تضر المجتمعات شيوع هذه الصفات فى آحادها ، لأن هذه الصفات المنكرة كما تصد هؤلاء الآحاد عن النجاح فى معاملاتهم ، تحول بينهم وبين التماسك فيما بينهم لتأليف اجتماع قوى مترابط الأجزاء لا تتسرب إليه المحللات العارضة .

لهذا السبب كان أول ما توجهت إليه عناية الفلاسفة والمشترعين والعاملين على إنهاض الجماعات البشرية ، الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، باذلين فى سبيل دعمها ، وتقوية أسسها أقصى جهودهم ، لأنها هى القوى الأدبية التى تربط الآحاد ، وتجعل منهم مجموعا متجانسا يصلح للحياة بين الجماعات المماثلة له ، ويقوى على منازعتها الحياة كما تنازعه هى إياها بقوى متعادلة ، فلم يبالغ الفيلسوف (شاتوبريان) حين قال : « الأخلاق أساس كل مجتمع » .

أما الإسلام فقد جعل للأخلاق المكان الأرفع من عنايته لكل الاعتبارات المتقدمة ، ولاعتبار آخر أعلى منها قدرا ، وأعم أثرا ، وهو إعداد النفس البشرية لقبول الإشراقات العلوية ، وتكييفها لتستطيع الاضطلاع بالمُهمة التى ناطها الإسلام بكل مسلم فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [1] أى شهداء على الناس فى غلوهم أو

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

تقصيرهم ، فى تعقلهم أو تقليدهم ، فى استقامتهم أو انحرافهم ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، أى فى قيامكم على الصراط السوى ، وفى التخلق بأخلاق الله ، والعمل بمحابّه ، وتجنب مكارهه ، وفى دعوة الناس إلى المعروف ونهيهم عن المنكر .

وضع الإسلام الأخلاق فى مستوى لم تضعها فيه أية فلسفة فى الأرض على شدة عنايتها بها ، وتباريها فى الإشادة بذكرها ، فقال النبى ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » والمفهوم من هذا الحصر ببداهة النظر أن الإسلام يعتبر مكارم الأخلاق غاية للدين الحق ، وثمرة لوسائله المختلفة ، ولا يعقل أنه يمكن وضع مكارم الأخلاق فى مكانة أسمى من هذه المكانة .

وقد بنى الإسلام كل ما ندب إليه من الآداب على هذا الأصل . قال الفضيل : « قيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها ، قال : « لا خير فيها هى من أهل النار » .

لم يكتف الإسلام بمجرد الدعوة إلى حسن الخلق ، فعمد إلى وسيلتين فعالتين من وسائل حياطة أهله من فساد الأخلاق فجعلهما من أهم أصوله : (أولهما) تحريمه الينابيع الثلاثة للشرور ، وهى الخمر والميسر والزنا ، تحريما لا هوادة فيه . و(ثانيهما) إيجابه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إيجابا لا هوادة فيه .

فأما الخمر فإنها بسلبها عقل شاربها تدفعه لكل ضروب المنكرات ، إلى حد أنه قد يقتل نفسه أو يقتل غيره ، وتهيئه بالإدمان عليها لكل ضروب الاستهانة بالفضائل النفسية ، فتحريمها على الناس يدفع عنهم كل ما يأتى من قبلها ، ويحفظ عليهم اتزانهم العقلى الذى يفرقون به بين الحسن والقبيح ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وأثر ذلك فى تقويم أخلاقهم لا يقف عند حد .

وأما الميسر فهو فضلا عن أنه رذيلة من أكبر الرذائل لابتنائه على سلب مال الغير بغير حق ، يفضى إلى التخلق بالغش والتدليس والمهاترة وغرس الغل والحقد والبغضاء فى النفوس ، حتى ليفضى بعض هذا إلى إراقة الدماء ، وكل ذلك يقدح فى الكمال الذى أمر المسلم بجعله نصب عينيه ، وبالاتجاه فى كل محاولاته إليه .

وأما الزنا فهو ذريعة للالتياث بأخلاق السفلة الرعاع من العدوان على

الأعراض والأنساب ، والتذرع بسفاسف الصفات من التحايل والتخفى وإفساد النفوس بالمغريات من المال أو الوعود الكاذبة ، وجميع هذه الوسائل تمحق المروءة ، وتدس بصاحبها فى حمأة الخسران .

وأما الوسيلة الثانية وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد شدد فيها الإسلام كل التشديد فقال : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) . وقال فى حق أمة هالكة : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) جعل عدم تناهيهم عن المنكرات التى يقترفها شرارهم سببا لهلاكهم ، وزاد على ذلك تشنيعا على إهمالهم هذا الأصل ، فقال النبى ﷺ : « لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا » .

وزاد الإسلام على هذا الأصل الكريم نظاما تكافليا فجعل آحاد الأمة قوّاما بعضهم على بعض ، فقرر أنه لا يحل لمسلم أن يرى منكرا فيهز كتفيه ويمضى فى سبيله ، ولكنه أمر أن يبذل قصارى جهده فى معالجته ، فقال ﷺ : « من رأى منكم المنكر فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » . وقال : « الدين النصيحة . فقيل : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ورسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم » . فالنصيحة لله بالقيام بما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، والنصيحة لرسوله باتباع سنته ، وتأييد شريعته ، والنصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم بتنبيههم إلى محاب الله ومكارهه ، والإهابة بهم إلى سبيله .

هذا النظام التكافلى الذى انفرد به الإسلام من أكفل النظم لحماية الأخلاق فى الأمم ، وأفعلها فى تطهير نفوسها من الرذائل .

هنا قد يعترض علينا بعض الناس بأن هذا النظام ينافى الحرية الشخصية ، ونرد عليه بأن الحرية الشخصية لا يصح أن يكون لها احترام إلا فى الأمور المباحة التى لا يعود منها ضرر على المجتمع ، والإسلام قد أباح لكل إنسان أن يستعمل حقه الطبيعى فى كل ما لا ينافى القانون العام ، وما لا يجافى ناموس الأخلاق ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ .

(٢) سورة المائدة : ٧٩ .

أما فيما عدا ذلك مما تحرمة الشريعة ، وينكره العقل ، ويفسد الآداب العامة ، ويضر بكيان المجتمع فإن الإسلام يحظره حظراً لا هوادة فيه ، ويجعل لكل فرد من أفراده حق إنكاره وإزالته بكل وسيلة يراها أصلح للقيام بواجبه حياله . فإن استطاع أن يزيله بنفسه فعل ، وإلا رفع أمره إلى ولاة الأمور ليتولوا أمر إزالته بما لديهم من وسائل القمع . فهل من الحرية الشخصية الموافقة لمصلحة المجتمع أن يفتتح أحد الناس ماخورا يحشر إليه النسوة الساقطات ، ويسهل على الفساق ارتكاب الفحشاء ؟ وهل منها أن يتخذ حانوتا لبيع الخمر وأن يسقى الناس منها على مرأى من الناس لإزهاق عقول المولعين باحتسائها ؟ وهل منها أن يؤسس بعض أهل البطالة محلا للمقامرة لاستنزاف ثروة الناس ، أو للإتيان على ما فى أيديهم فى سبيل اللعب ؟ .

إن قال المعترض : نعم ، لم نكلف أنفسنا الرد عليه ؛ وإن قال : لا ، قلنا : أفلا يكون من مصلحة الأمة إزالة هذه المنكرات لاتقاء ما تجر إليه من البلايا والويلات ؟

وغير هذه المنكرات أمور تنافى الآداب ، وتجرح الأخلاق ، يتخيلها الإباحيون من الصغائر وهى تجر إلى أكبر الكبائر ، وأفدح المحظورات ، كمعاكسة الغاديات والرائحات من النساء ، والرقص الخليع على مرأى من الناس الخ الخ ، فأية حرية شخصية تبيح هذه الموبقات ولها من النتائج ما تتقزز منه النفوس السليمة ؟ .

فالنظام التكافلى الذى اختص به الإسلام ينفى جميع هذه المفاسد دون أن تحتاج الحكومة إلى شرطة وجلاوزة لمراقبته ، وكف أهل البطالة عنه . وعمل الإسلام هذا فضلا عن أنه لا ينافى نظم الحكومة الرشيدة يوافق ما هدى إليه علم الاجتماع ، ودلت عليه أطوار المجتمعات .

قرر علم الاجتماع أن مجموع الأمة كالجسد الحى ، وأن آحادها فيه كالخلايا المكونة لمجموعه ، وأن بين الآحاد ترابطا طبيعيا يشبه ترابط تلك الخلايا بعضها ببعض ، وأن فساد بعضها أو مرضه يؤثر فى مجموعها بنسبة ذلك الفساد أو المرض ، فإذا كان هذا علما مقررا فكيف يصح للآحاد وهم الخلايا المترابطة المتكافلة فى بنية الاجتماع أن يغضوا ، وهم عقلاء مدركون ، عما يصيب شركاءهم فى ذلك الاجتماع وهم مرتبطون بهم أدق ارتباط ، وأثر تركهم وشأنهم تقع ويلاته عليهم أجمعين ، ولا تخص جماعة منهم دون آخرين ؟

أليس المنطق الاجتماعى يقضى بأن تحرص خلايا الاجتماع على صحتها وقوتها حتى لا يكون فساد بعضها وضعفه سببا فى اختلال كيانها العام ، وإصابته من جراء ذلك بالأمراض التى يعجز عنها نطس الأساة كما هو الشأن فى المجتمعات الراهنة حتى الآخذة منها بأوفر حظ من المدنية والثقافة ؟

أليس ما تشكو منه الأمم اليوم من اضطراب الأحوال وتفاقم العلل ، والتواء أمرها على القادة والهداة ، كل ذلك من أسباب تركهم الخلايا الفاسدة تعمل فى بنية مجموعهم ، ويستشرى مرضها فيها ؟

كل هذه الأسرار التى كشفها علم الاجتماع ، قد أوجزها الكتاب الكريم فى آية يجب أن تكتب بحروف من نور على صفحة الوجود ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا فِتنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُم خَآصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلعِقَابِ ﴾ (١) . فإذا كان عبث العابثين بمبادئ الأخلاق لا تقتصر مضاره عليهم بل سيصيبنى منها شىء ، فكيف أغضى الطرف عنهم ، وأدعهم وشأنهم يأتون ضروب المنكرات ، ولا أحاول أن أصرفهم عنها بكل الوسائل الممكنة ؟

فهل إذا جد الجد وحلت الفتن بالمجتمع ، وأصبح الناس حيارى لا يعرفون وجه الخلاص منها ، ودفعتهم الكوارث لمواجهة أخطر الانقلابات ، نقول : إن حدث ذلك أيشفع لنا وللبريئين من أمثالنا أن نقول إنا لم نقترف من هذا شيئا وإنما تركنا غيرنا يعمل ما يشاء احتراما لمبدأ الحرية الشخصية ؟

أية حرية مشئومة هذه التى تدفع بالآحاد والجماعات فى تيهور الفتن المتأججة ، ويحاط العابثون بها بحماية النظم الموضوعة ، فلا يملك أحد أن يقفهم عند حد من تهورهم ؟

فعلى الذين يدافعون عن مبدأ الحرية الشخصية بمعنى الإباحة العامة أن يثبتوا لنا أن عدوان الأفراد على الأخلاق والآداب والتقاليد المقررة لا يؤثر على بنية الاجتماع

---

(١) سورة الأنفال : ٢٥ .

خلافا لما نصت عليه العلوم الاجتماعية ، فإن عجزوا فليدْلوا لنا بعلم يدلنا على أن ذلك العدوان أجدى على الجماعات من منعه ، فإن أعيوا فعليهم تبعة ما يجنون على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم والله من ورائهم محيط .

أما نحن ففى أيدينا الدليل العلمى القاطع على أن ما قرره الإسلام وانفرد به من هذا النظام التكافلى العام ، هو خير ما تصان به المجتمعات من النصب ، وأنه سيكون فى يوم من الأيام معاذا لجميع الحكومات من شرور الآثام التى يرتكبها الأفراد ، ويكون ذلك مصداقا لما قاله الفيلسوف (برناردشو) الانجليزى : إنه لا يشفى أوروبا من عللها غير الأخذ بالإسلام .

فعلى المسلمين فى جميع بقاع الأرض أن يستنوا سنة الإسلام فى مكافحة ما اعترى جماعاتهم من الأدواء القاتلة ، وليس لهم أن يقلدوا الغربيين فيما لا يسمح به منطق ، ولا يستقيم عليه حال ، فإن دينهم يحثهم على الأخذ بالأحسن ، لا على الأخذ عن غيرهم بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن هذا القرآن الذى بين أيدينا يكفل لنا سعادة الحياتين ، فيؤاتينا بالأصول ويسندها بالدلائل القاطعة ، ويدعونا للنظر فيها وتعقلها والأخذ بها على بصيرة ، فيقول تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ويقول : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (٢) وأى قول أصدق من هذا وقد أيده العلم والمنطق السليم ؟ (*) .

* * *

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

(٢) سورة الإسراء : ٩ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص : ٤١٤ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

الماديون وأصول الأخلاق

ينكر الماديون وجود الخير المطلق ، زاعمين أن الخير والشر أمران نسبيّان ، فما ينفع الإنسان يسميه خيرا ، وما يضره يسميه شرا . ويبتنى على هذا أن ليس للأخلاق أصول أولية أوجدها الخالق وطبع الناس على الأخذ بها فى أعمالهم وتصرفاتهم ، وإنما هى المصالح الوقتية تحتم عليهم اتباع هذه الخطة أو تلك ، تبعا لما تقتضيه تلك المصالح نفسها منهم .

وهم فى هذا الشطط إنما يصدرون عن فلسفتهم المادية ، إذ يزعمون أن الإنسان حيوان ، لا فرق بينه وبين غيره من الحيوانات إلا فى كمال جثمانه ، وفى قبوله للترقى ، لقيامه على تركيب يسمح له بذلك . وهو مثل سائر الحيوان ليس له روح تخلد فى حياة بعد هذه الحياة الأرضية . وكل ما عزاه الإنسان لنفسه من الخصائص الروحية والعقلية ، ومن الاتصال بعالم أعلى من هذا العالم ، إنما هو شىء زينه له الهوى والخيال ، وأرسخه فى ذهنه الوهم والضلال .

رأس الماديين المعاصرين (بوخنر) الفيلسوف الألمانى الذى توفى سنة ١٨٩٩ قد حشر فى كتابه المسمى (القوة والمادة) جميع الأصول المادية ، وبالغ فى دعمها بما زعمه من المقررات العلمية ، حتى سمى أشياعُه هذا الكتاب بالكتاب المقدس للمادية .

ادعى هذا الفيلسوف فى كتابه أن ما يسمى بالناموس الأدبى خيال محض ، واتّهم الروحيين من الفلاسفة بأنهم سريعو الانخداع بالقشور ، فعاب عليهم ادعاءهم وجود خير مطلق ، زاعما أنه ليس فى الوجود أصل أدبى مقرر ، فقال :

« إن المبادىء الأدبية ثمرة التربية ، وهى تترقى وتتهذب على طول الزمان حتى لدى الأمم المتمدنة ، والوجدان الأدبى مثل الوجدان الدينى من مبتكرات قادة الأديان الذين يدعون أنهم يصدرون عن الله مباشرة ، فما الوجدان الأدبى فى حقيقته

إلا الاعتقاد بوجوب أعمال محدودة اعتبرتها الهيئة الاجتماعية أصولاً لا يجب الأخذ بها لضرورتها لها ليس إلا » .

هذا ما قاله بوخنر ، ولكن التحقيق أن للصفات السامية أصولا إلهية يجب البحث عنها من طريقها ، وقد ألهم الله الإنسان أن يعيش فى هيئة اجتماعية من بنى نوعه . ولما كانت الحياة المشتركة لا تقوم إلا على أصول من العدل والأخلاق والآداب ، أوحى الله إلى الإنسان الأول التمسك بها ، وتتابعت الأديان السماوية على حض الناس على التقرب من مُثُلها العليا ، على قدر ما تمكنهم من ذلك الوسائل العلمية والأدبية .

ولكن بوخنر ينكر كل هذا ويزعم أن ليس هذا الوجدان الأدبى بفطرى فى النفس البشرية ، وإنما هو مجموع عادات أوجبها على الشخص المكان الذى يعيش فيه ، وأرسخها فيه شعوره بوجوب تطبيق أعماله على الحاجات الاجتماعية . فالخير عنده ليس له أصل قديم ثابت وإنما هو الخلق الذى ينطبق على حاجة النوع الإنسانى أيًّا كانت طبيعته .

وعليه فقد يعتبر الشر فى زعمه خيرا والعكس بالعكس . فالمجرم الذى يعاقب على جنايته ليس هو بجان فى الحقيقة كما يقول ، فلئن عاقبته الهيئة الاجتماعية فإنما تعاقبه لأن ما فعله خطر على نظامها الحيوى ، وهى لها الحق فى معاقبته ، لأن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد .

ثم تصدى بوخنر للحرية الإنسانية التى اعتبرها العلماء الروحيون مبدأ للاختيار والإرادة ، فهدمها قائلا : إنها وهم باطل ، فإن الإنسان فى ذاته حادث طبيعى محكوم بالطبيعة التى كوّنته ، وبالمناخ الذى نشّأه ، وبالبيئة التى ربّته ، وبالجنس الذى نسله ، وبالتربية التى غُرست فيه من صغره .

يرى القارئ مما مر أن الماديين يجعلون الحاجة الاجتماعية أصلا لسائر الأصول الأدبية والاجتماعية ، وأن هذه الأصول لا أصل لها لا فى فطرة الإنسان ، ولا فى الخارج .

وقد قالوا : إن الحاجات الانسانية هى : (أولا) حاجات مخية . (ثانيا) حاجات قلبية . (ثالثا) حاجات حسية . (رابعا) حاجات غذائية ، مرتبة هذا الترتيب . والذى يدعو إلى اعتبار الحاجات المخية فى المقدمة كونها أرقى مما يليها ، والذى يليها أرقى مما بعده ، إلى الحاجات الغذائية التى هى دون جميع الحاجات ، إذ يشترك فيها أدنى النباتات مع الإنسان .

وقالوا : على هذه الحاجات قامت حياة الإنسان فى كل جيل ، ونشأ منها جميع ما يتشدق الإنسان به (فى زعمهم) من الألفاظ الضخمة والعبارات الطنانة ، مع أنها لا تعلو عن الحاجات الحيوانية فى كبير شىء .

ونحن لأجل الرد على هذه الشبهات نقول :

مما لا يستطيع بوخنر نكرانه بوجه من الوجوه ، أن فى الكون نظاما ثابتا لا يتغير بتغير الأزمان ، ولا يتحول بتحول الإنسان . هذا أصل تعترف به كل فلسفة فى العالم . ذلك النظام مشاهد محسوس ، عليه بنيت جميع العلوم ، وبينه وبين الإنسان ارتباط من جميع الوجوه ، بل الإنسان لا يستطيع الافتكاك عن هذا النظام لأنه جزء من أجزاء الكون . وقد اكتشف الإنسان فيما وقع عليه بصره من هذا الكون علاقات بين الحوادث والظواهر سماها نواميس طبيعية ، وتتبعها فى الحوادث المشابهة فوجدها ثابتة لا تتغير .

فوجود هذا النظام الكونى البديع ، وتلك النواميس الطبيعية الحكيمة ، حقيقة ثابتة لم نسمع بمن حاول نقضها قديما ولا حديثا حتى الماديين أنفسهم .

ثم إنه مما لا يستطيع أن ينكره منكر أن الإنسان امتاز عن جميع الكائنات المحسوسة بأنه كائن عاقل مدرك ، عَقَل أن له وجودا خاصا ، وأدرك أن فى الوجود العام الذى يعيش فيه نظاما له نواميس مقررة لا يحيد عنها إلا بإرادة عليا من مبدعه .

وإن الإنسان فكّر وتدبر ، وقاس حاضره على ماضيه ، وقارن بين حوادثه المختلفة ، فأدرك بعد انتهائه إلى درجة عالية من العقل أن كمال حياته مرتبط بكمال إدراكه لتلك القوة الحافظة للنظام الكونى . وتاريخ الفلسفة حافل بكل هذه المحاولات فى خلال العصور .

ولقد أدرك الإنسان أنه لم يمتز على سائر الكائنات بالعقل إلا لأنه خلق لإدراك غاية لا يدركها سواه من سكان هذا العالم ، وأنه سوف يحقق لنفسه بها كمالاً يسيطر به على الطبيعة نفسها ، فيستخدم قواها لمصلحته ومصلحة ما يحيط به . هذا ما أجمع الفلاسفة على القول به ، وهو ما يسميه الإسلام بخلافة الله فى الأرض .

ترقى الإنسان فى العلم والشعور فرأى فى الكون دلائل ناطقة على العناية الإلهية بالكائنات ، وعلى وجود قوى لا يدرك كنهها دائبة على تربيتها وتكميلها ، وعوامل خصصت لترقيتها وتهذيبها ، فهو أينما يوجه وجهه لا يرى إلا آثار تلك العناية ، ودلائل هاتيك القوى ، وهذا ما يسميه علماء الكون بناموس الارتقاء العام .

وقد تعمق الإنسان فى البحث عن هذه القوى الدائبة على ترقية الكائنات وتكميلها فوجدها فيضا دافقا من مدبر حكيم لا يحيط به عقله ، ولا يستوعبه ذهنه ، إذ وجد فيها نظاما لا يتطرق الخلل إليه ، وإحكاما لا يجوز الخبط عليه ، وعدلاً لا تفلت منه الذَرّة ، وعناية نشرت رواقها على كل كائن ، فعاش فى ظلها ما لا يحتمل اللمس ضعفا ، كما عاش ما يرجّ الأرض بمشيته قوة ، إذ أمدت ذلك الضعيف بما به قيامه وبقاؤه ، وألهمته ما يدافع به عن نفسه ويحفظ نوعه .

أدرك الإنسان كل هذا وعقله ، وأعجب به وأشاد بذكره ، ولم يتخلف الماديون عن غيرهم فى هذا المجال ، فوضعوا المطولات فى سرد بدائع الطبيعة ، والنظام السائد فيها ، والترابط المحكم بين أجزائها ، ووقف الإنسان أيضا بصورة إجمالية على بعض ما فى الكون من تقدير وتدبير وقصد ومراعاة للأصلح .

وهل كل هذه الصفات الفائضة على الكون إلا أصول سامية قامت عليها السموات والأرض ، وانتظمت بها عوالمها حتى بهرت ظواهرها العقل ؟ وهل هى إلا خير محض ، وجمال بحت ، وكمال لا يقف جلاله عند حد ؟

فكيف يسوغ لفيلسوف بعد هذا أن يقول : إنه ليس فى الكون أصول أدبية ، وإن الخير والشر أمران نسبيان ، فما ينفع الإنسان سماه خيرا وما يضره سماه شرا ، والواقع أن الشر كل ما خالف نظام الوجود وآدابه ، والخير كل ما وافقه وساير نظامه ، والإنسان مدفوع لمحاكاة الطبيعة فى آدابها ونظامها ، فكلما بلغ من ذلك

حدا قلّ شره على نسبته ، فلا يزال يتحراه ويقتاس به حتى يصبح رجلا كاملا متخلقا بأخلاق مبدعه الظاهرة فى مصنوعاته ، الواضحة فى أعلامه ، التى نصبها لمن يعقلها من كائناته ؟

كيف يزعم زاعم أن العدل والظلم يستويان ، وأن القسوة والرحمة يتعادلان ، وأن الجهل والحكمة يتوازيان ؟ وهلا يرى أن النوع البشرى مدفوع إلى الأخذ بالصفات العليا ، ودائب فى الابتعاد عن الصفات الدنيا ؟ ألم يفرد للتمدح بالفضائل كتبا ، ويقم للعاملين بها نصبا ؟

لعل الذى فتن هؤلاء الماديين أنهم يرون القبائل العريقة فى الوحشية لا تفرق بين المحامد والمذام من الصفات الإنسانية ، ولكن أيخفى عليهم أن هذه الجماعات ما قضى عليها بما هى فيه غير الجهل ، وأنها متى أمدت ببصيص من نور العلم اندفعت بفطرتها لتحرى الفضائل ، والإملاس من الرذائل ؟

إن التمويهات الكلامية التى ساقها بوخنر فى كتابه ، وافتتن بها بعض البسطاء من قرائه ، لا يصح أن تكون ماثلة فى فلسفة القرن العشرين إلا على سبيل التدليل على فساد الذوق المنطقى عند ماديى القرن التاسع عشر ، فإن الفيلسوف الذى يسمح لنفسه أن يقول كما قال بوخنر : « إن المجرم الذى يعاقب على جنايته ليس هو بجان فى الحقيقة ، وإنما هو يعاقب لأنه أتى فعلا يضر المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه » . إن متفلسفا كهذا لا يصلح أن يحشر فى عداد أهل التفكير والروية ، فإنه بحكمه على الإنسان بهذا الانحطاط قد سلبه أخص معارفه الضرورية ، من التمييز بين الجمال والقبح ، وقد ثبت وجود حيوانات تفرق بينهما . وإذاً يكون الإنسان أحط منزلة من الحيوان .

الخلاصة أن النظريات المادية الإلحادية ليست كما ترى إلا عصارة من آراء ضالة ، وسفسطات بائرة أدت إلى مذهب لا يفتتن به إلا الذين تستهويهم الزخارف الكلامية ، ولا يجدون فى أنفسهم قدرة على تحليل المسائل الفلسفية (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص : ٨٩ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

قضية الأخلاق والإنسانية

لو كانت الجماعات البشرية تجرى على ما يراه عقلاؤها أصلحَ لوجودها ، وأقومَ لحياتها ، لكان شأن الإنسانية غير ما نراه اليوم ، نبلا فى الآداب ، وسموا فى العادات ، وشرفا فى المقاصد ، ولكانت بلغت من المعارف مدى أبعد مما هى عليه اليوم ، وكانت مدنيتها خالصة من أكثر ما يشوبها من المثالب . لأن العقلاء لا يجرون وراء الأهواء ، ولا يجعلون للرذائل سلطانا عليهم تقودهم إلى مواطن الهلكة صاغرين . ولكن العقلاء قليلو العدد فى كل مجتمع ، قد لايبلغون واحدا فى كل ألف . فماذا تفعل هذه القلة الضائعة ، فى هذه الكثرة الزاخرة ، وخاصة إذا لم يكن معها وازع من سلطان ، أو رِدء من قوة ؟

الحكمة قديمة كقدم الإنسان نفسه ، فقد دلت أساطير الجماعات ، حتى فى أبعد عهودها ، أنها لم تحرم من أفذاذ من آحادها ، مُنحوا مواهب عقلية ارتفعوا بها عن مستوى السواد الأعظم درجات كثيرة ، أدركوا معها من أصول الحياة الطيبة ، ما لم تدركه الجماهير الصاخبة ، ولكن أنى لهم أن يتغلبوا على شهوات تلك الجموع ، وخاصة إذا كانت محرومة من أوليات المعرفة ؟ وقد رأينا كثيرا ما طغت ضوضاؤها المدوِّية على أصوات أولئك الحكماء ، فلم يشعر بها أحد ، بل كثيرا ما سطا عليهم غوغاؤها لشذوذهم عن طريقتها ، فقضوا عليهم كما كانوا يقضون على الحشرات المؤذية .

قضى الناس آماداً طويلة فى هذه الحياة الجاهلية ، كان الخالق يتعهدهم فيها برسل يبينون لهم الطريق القويمة ، ويشيدون لهم بالحياة الصالحة ، فما كانوا ليرعووا عما هم فيه ، بل كان يحملهم ذلك على إساءة الظن بأولئك الرسل ، فيقتلونهم أو يشردونهم عن أوطانهم إلى حيث يأمنون تأثيرهم ، ويتقون شرهم !!!

كثيرا ما قيل إن علاج هذه الحالة السيئة يتوقف على إذاعة العلم وإزالة الجهل ،

وهى وسيلة فعالة ولكنها ليست بحاسمة ، فلا تزال فى البلاد التى أخذت من المدنية بنصيب وافر ، فئام وآحاد لا خلاق لهم من الأخلاق الإنسانية الشريفة ، وإليهم يرجع جميع ما يروى عن تلك البلاد من جرائم منظمة ، وجرائر مدبرة ، ولكن مهما كانت الحال فان انتشار العلم وسطوع أنواره على الجماهير ، خير من بقاء الأمة فى سُدَف من الجهل ، وأغلال من الأمية .

السبب العلمى الصحيح لعقم التربية الخلقية فى الأمم ، يرجع إلى تعدد العوامل فى ملاشاة تأثيرها ، فإنها لأجل أن تؤثر فى النفسيات يجب أن تصادف فيها :

(**أولا**) استعداداً فطريا للتأثر بها ؛ وهذا الاستعداد هو الشرط الأول فى نجاحها ، فإن لم يكن كان من العبث توقع أى نجاح لها . ألست ترى أن أخوين شقيقين ، وقد يكونان توأمين ، تكوّنا فى مستقر واحد ، وولدا فى بيت واحد ، وربيا جسدا وروحا على أسلوب واحد ، ونشئا فى مدرسة واحدة ، قد شبا من الأخلاق على طرفين متناقضين ؟ فإذا كان للتربية الخلقية تأثير ذاتى ، لصبت هذه الغلامين فى قالب واحد . وقد فطن إلى هذه الحقيقة شاعر حكيم فقال :

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

وأقام زميل له الدليل المحسوس على هذه الحقيقة فقال :

فموسى الذى رباه جبريل كافر وموسى الذى رباه فرعون مرسل [1]

(**ثانيا**) بيئة تصلح لتقدير الصفات الإنسانية العالية ، والمكافأة عليها .. فإن استوى عندها الخبيث والطيب ، أو فاز الخبيث بالنصيب الأوفر بسبب خبثه ، اتقاءً لشره ، كان ذلك فى العمل على ملاشاة آثار التربية ، أمضى من كل عامل غيره .

(**ثالثا**) شجاعة أدبية فى الجماعة ، تسمح لها أن تنقد الناس نقدا ، فتصارح المسىء باساءته ، وتحمد للمحسن إحسانه ، بصرف النظر عن مكانه المادى .

فلهذا لا تستطيع أن تصادف أمة تغلب سيرةُ العقلاء سيرةَ السفهاء فيها ،

---

(١) موسى الأول فى هذا البيت هو السامرى طاغية بنى إسرائيل ، وقد جاء فى الأساطير أن جبريل رباه .

وهذا الأثر السيء قد عالجته الجماعات المختلفة على ضربين مختلفين ، فعالجته الأمم الشرقية ، وخاصة الإسلامية ، باستعمال الإجبار لكبح جماح المعتدين ، على ما رسمه الكتاب والسنة من العقائد والعبادات والمعاملات . وعالجته الأمم الغربية بترك الأمر وشأنه ليتفاعل ، وما مُنحه الإنسان من عقل ، وما أودع فطرته من أدب ، وما حُليت به طبيعته من مناعة ، ذهابا من تلك الأمم أن هذه خير وسيلة لحياة الإنسانية خالصة من أهواء الطوائف ، وأوهام الطبقات ، ومزاعم المتصدرين لقيادة الأرواح ، مما كانت له آثار مهلكة فى النوع الإنسانى ، والهبوط به إلى دركة العبودية ، لطبقة اتحلت لنفسها الحقوق الإلهية المقدسة ، فى جميع عهود البشرية إلى عهد الثورة عليها فى القرن الثامن عشر .

لا جرم أن التفضيل بين هذين المبدأين يوقع فى الحيرة ، لا من ناحية أن الإجبار على اتباع الطريقة المثلى شين اجتماعى يجب التخلص منه ؛ ولكن لأن إقامته وسط عالم كله على خلافه ، وضرورة الاختلاط بأقوام مباح لهم ارتكاب كل ما يعاقَب المسلم عليه ، كل هذا وغيره يجعل تطبيق هذا الإجبار من الصعوبة بمكان .

لهذا السبب اضطرت أمم إسلامية للأخذ بمذهب أهل الغرب فى احترام الحرية الشخصية للأفراد . هذا حسن ، وهو فى نظرنا لا معدى عنه ، ولكنا نشترط أن نأخذ بهذا المبدأ معدّلا فى حدود الحرية الشخصية . فاذا سُمح لزعماء الحرية الشخصية أن يعاقبوا من يصقون أو يتنخمون فى الشوارع ، محافظة على صحة الناس ، كذلك يجب أن يُسمح لهم أن يمنعوا تهتك الرجال والنساء فيها محافظة على آداب الأمة ، وهلم جرا .

اجتمعتُ مرة ورجلا لا أعرفه فى قطار ، فأخذ يشيد ، لبعض المناسبات ، باستقامته ، وبأنه يكره أن يؤذى أحدا الخ ، ثم تمادى فى الحديث فعلمت منه أنه يشرب الخمر . فقلت له : إنك قلت إنك مفطور على كراهة الأذى ، فكيف تسمح لنفسك أن تشرب الخمر ، وأذاها محقق لنفسك ولأسرتك ولمجتمعك ؟

فقال : كيف ذلك وأنا أشتريها بمالى وأشربها فى دارى ؟

فقلت له : إن المال الذى تنفقه عليها تقتطعه من نفقه أولادك ، وحَسْوُك

إياها على مرأى منهم تَجْرىء لهم على معاقرتها ، وفى كل هذا أذى لهم ، قد يتفاقم عند بعضهم حتى يهلكه .

فلم يُحِر جوابا وانقطع الحديث بينى وبينه .

الحق أن فى كل تعدٍّ على الآداب والأخلاق الفاضلة ، أضرارا مادية قد لا تقف عند حد ، بل الواقع أنها هى الأسباب المباشرة فى إيصال البشرية إلى هذه الدركات من الشرور والويلات .

وقد يحار الإنسان حينما يرى أن زعماء الحرية الشخصية تشددوا فى تقييد هذه الحرية فى ناحية الأمور المادية ، ولم يراعوا ذلك بل أغفلوه فى ناحية الشئون الأدبية ، إلا ما يعده الذوق العام غليظا جافيا . ولكن هذه الحيرة تزول متى عُلم أن وَضَعة هذه النظم من أهل القرن الثامن عشر فى الغرب ، كانوا لا يعترفون بوجود ناحية روحية فى الإنسان ، ويعتبرون كل ما سنته الأديان من المحافظة على سلامة هذه الحالة لا ضرورة له البتة . فلو كان المسلمون ادرعوا بالشجاعة الأدبية ، وجمعوا فى نظمهم بين مراعاة الناحيتين ، أول ما أرادوا أن يقتاسوا بأهل الغرب فى القرن الماضى ، لكانوا قد وفوا بحق هذه الأمة عليهم ؛ ولكن ما فاتهم هم لا يجوز أن يفوتنا نحن ، فنحن أمة تعنى بالناحيتين الجسمية والروحية ، وقد جاء العلم الغربى نفسه فأيدنا فى عقيدتنا فى الروح ، فلا عاب علينا فى نظر الغربيين أنفسهم أن نستكمل نظمنا ، فنقيد الحرية فى كل ما يعدو على الناحية الروحية ، كما نقيدها ويقيدها غيرنا فى كل ما يعدو على الناحية المادية ، فى حدود الاعتدال وعدم التنطع (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، ص ٣٨٦ ، سنة ١٣٦١ هـ .

أثر العبادة فى حياة المسلمين الاجتماعية

ضمنى مجلس يوما وأحد رجال القلم من غير المسلمين ممن تؤديهم بحوثهم إلى تناول الكلام عن الإسلام ، فلما أخذ كل منا مجلسه ، نظر إلىّ وخصنى بكلمات من الثناء شكرته عليها ، ثم قال : لقد كنت أرجو أن يضمنى وإياك مجلس فأطرح عليك سؤالا أطلت البحث فى جوابه حتى اهتديت إليه ، وأحب أن أرى رأيك فيه .

فقلت له : وما هو ذلك السؤال ؟

فقال : بم تعلل سرعة قيام المسلمين ، وانسياحهم فى الأرض ، وتأسيسهم لدولة بذت دولة الرومانيين فى الاتساع وبسطة السلطان ، مما حير عقول الباحثين ولم يجدوا له تعليلا يقبله العلم الاجتماعى وتسيغه فلسفة التاريخ ؟

فقلت له : أتحفنى بالجواب الذى وفقت إليه لأرى رأيى فيه أولاً .

فقال : إنى أرى أن علة هذه السرعة كانت شدة تماسكهم ، وقوة ترابطهم ، حتى أصبحوا على كثرة عددهم كالجسد الواحد تديره إرادة واحدة ، ويدبر حركاته عقل واحد .

قلت : أحسنت فى وجدان العلة ، فإنه جدير بأمة تصبح من الترابط كالجسد الواحد أن تأتى بالآيات فى التوسع وبناء صروح المجد ، ولكن فاتك أمر جلل وهو أن تفسر كيف حدث ذلك التماسك الذى لم يكن مثله لأمة قبلهم ، وقد كانوا فى أمسهم مثلا يضرب فى تفرق الكلمة ، وفى التحاقد الذى كان كثيرا ما يحملهم على التناحر ، فإن انقلاب جماعات كانوا بالأمس على شر حال من التنابذ والتكافح إلى جماعة واحدة متحدة المبدأ والغاية ، تضطلع بمهمة اجتماعية كالتى اضطلع بها المسلمون الأولون ، وتنجح فى أدائها ، رغما عن جميع العقبات التى صادفتها ، والقواطع التى قابلتها ، قلنا : إن مثل هذا الانقلاب المحير للعقل يعوز تفسيرا ، إذ ليس هو بالأمر العرضى ، ولا بالسبب الثانوى ، ولكنه الأصل الأصيل فى إحداث

ذلك التماسك الذى أدهشكم من آثاره ما أدهشكم . وإذا كان هذا أثر التماسك بين آحاد الأمم ، فما الذى يمنعها أن تأخذ به لتصل إلى أقصى غايات الاجتماع من أقرب الطرق إليها ، وبمثل السرعة التى أدت المسلمين إليها ؟

فسكت مخاطبى قليلا ثم قال لى : وما سر ترابط المسلمين هذا الترابط المتين فى نظركم ؟

قلت : إن سره فى نظرى يرجع إلى الحكمة التى بنيت عليها عباداتهم ، فقد كتب على المسلمين صلاة وصوم وزكاة وحج . فالصلاة عمل تشترك فى أدائه الجوارح والقلب معا ، وقد روعى فى حركاتها الجسدانية أن تمثل الإنسان واقفا أمام خالقه خاشعا مستسلما قارئا ، فإذا أتم قراءته ركع خاضعا ، ثم قام وخر ساجدا ، واضعا جبهته على الأرض ، وهو غاية ما يستطيع الإنسان أن يظهره من دلائل الطاعة والعبودية لقيوم السماوات والأرض . أما عمل القلب فقد أمر الإنسان أن يتجرد فيه من جميع علائقه بالدنيا ، وأن يثير فى نفسه شعورا قويا بصلته بخالقه . فيُطلب إليه أول ما يدخل إلى الصلاة أن يقول : « الله أكبر » قاصدا بذلك محق جميع الأغيار ، والتحلل من جميع الآصار ، مطرحا كل هوى وكل خاطر ، حاصرا جميع قواه الروحية فى مبدعه الحكيم الذى لا يحصره وصف ولا يحده مكان . فإذا تم له هذا التجرد بدأ يتلو أم الكتاب ويعقبها بما تيسر من السور أو الآيات . فهذا العمل القلبى إذا أُدى على ما ينبغى رفع من نفسية الإنسان ما لا ترفعه دراسة الفلسفة سنين ، وهذب من شعوره ، ولطف من إنسانيته ، وأزال من أدواء نفسه ما لا تستطيعه العلوم مجتمعة .

والصوم إمساك عن الأكل والشرب ساعات معدودة ، يقضيها المسلم فى فكر أو ذكر أو عمل ، بعيدا عن المشاغبات والمعاكسات ، تفرغ فيها النفس لِذاتها تحت جو من التجرد صالح لإبراز أقصى مكنوناتها من القوى المعنوية ، والأنوار القدسية .

والزكاة مِران إجبارى للنفس على أن تفكر فى حاجات غيرها ، وتسد مفاقر إخوانها ، وإخضاع للغنى بسلطان الشريعة على أداء حق المجتمع من المال الذى اجتمع لديه ، باعتبار أنه عضو من هذا المجتمع لا حياة له إلا بحياة المجموع وسلامته .

والحج رمز عملى لوحدة الوجهة ووحدة الغاية ، وإشعار للناس كافة بأنهم إخوان فى الله ، وإن فرقت بينهم المناسب ، وباينت بينهم المناصب ، وأنهم وهم محرمون فى صعيد واحد يمثلون حالة الفطرة ، إخوانا متحابين أمام معبود واحد ، لا ينظر إلى صورهم ولا إلى أموالهم ، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم .

إن هذه العبادات كلها تتكافل فى إعداد النفوس إلى كالها باستثارة القوى المعنوية الكامنة فيها ، فما الذى يمنع هذه النفوس من التحاب والترابط ، وجميعها قد خلص من إسار الأوهام ، وافتك من سلطان الأهواء ، وتطهر من أدران الأدواء ؟ وكيف لا يكون الترابط بينها على أقوى ما يتُخيل وقد سلمت من جميع العلل المفرقة ؟

قلت لمحدثى كل هذا ، فأظهر إعجابه به ، ثم أخذنا فى أحاديث أخرى حتى تفرقنا .

وإنى أحب فى نهاية هذه المحادثة أن ألفت نظر المسلمين إلى وجوب أداء العبادات على ما أمر الشرع الحكيم : من التدبر فيها ، وإعطائها حقها من الخشوع ، والمثابرة عليها . وقد أشار الله إلى ثمرات هذه العبادات فى تكميل الإنسان فقال فى حق الصلاة : ﴿ إِنَّ ٱلإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [1] . فانظر إلى هذه الثمرة الكريمة التى تتحصل من الصلاة ، ثمرة لو بذل الإنسان فى سبيلها ملء الأرض ذهبا ما حصل عليها ، وهى أنه يصير من ثبات الجأش ، ورباطة القلب بحيث لو أصابه ما تطير له النفس شَعاعا ، وينخلع من هوله الفؤاد ارتياعا ، لثبت له ثبوت الرواسخ ، وهذه منزلة تَحدّث عنها الفلاسفة و لم يصلوا إليها ، وقد نالها المسلمون بفضل إيمانهم وعباداتهم ، فكانوا إذا زلزلت الأرض تحت أقدامهم ، ومادت رواسى الخطوب أمام أعينهم ، صمدوا لها مطمئنين ، حتى تأخذ حدها وتنجلى وقد زادتهم إيمانا إلى إيمانهم .

وقد أمرهم الله إذا جد الجد ، واشتد الكرب ، أن يلجأوا إلى العبادة يستمدون منها روحا يقاومون بها ما يحتوشهم من خطر ، ويساورهم من أمور كبُر ، فقال

---

(١) سورة المعارج : ١٩-٢٢ .

تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ ﴾ [١] . فانظر كيف يأمرهم أن يلجأوا إلى الصلاة يتقون بها الشدائد ، ويستفتحون بها أبواب الخير .

وقد أوعد الله تعالى الذين يعبدونه وهم لا هون بأمورهم الدنيوية ، لا يتدبرون ما يقولون ، ولا يعقلون ما يقرءون ، فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [٢] . فإن مثل هذه الصلاة لا تؤدى إلى الثمرة التى وضعت لها ، فلا يحصل مقيمها على شيء ، قال عليه الصلاة والسلام : « كم من مصل ليس له من صلاته إلا التعب ، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » .

ووصف الله تعالى الصلاة بأنها طهور للإنسان تدرأ عنه أدران الصفات الساقطة ، والخصال الموبقة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [٣] ، فإذا أداها الإنسان حق تأديتها منعته عن محارم الله ، وحفظت له كرامة إنسانيته . وإذا أداها ساهيا أو لاهيا حرم من ثمرتها ، قال النبى ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » .

وقال الله تعالى فى ثمرة الصوم : ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [٤] وهذا الخير لا يقف عند حد ، فإن النفس متى انقطعت عن أهوائها ورغباتها بالصوم ، استعدت لتلقى الإفاضات الإلهية ، وكان اتصالها بالعالم الروحانى أكمل وأتم مما تكون عليه فى حالتها العادية ، وليس فى وسع أحد أن يقدر قدر ما ينال الإنسان بهذا الاتصال من الرتب المعنوية .

فلا غرو أن يكون المسلمون وهم يتعرضون لكل هذه المزايا الروحانية على أكمل ما يُتخيل لأمة من الترابط والتساند ، وعلى أعلى ما يتصور من ثبات جأش

---

(١) سورة البقرة : ٤٥ .
(٢) سورة الماعون : ٤-٥ .
(٣) سورة العنكبوت : ٤٥ .
(٤) سورة البقرة : ١٨٤ .

أمام الزعازع ، ورباطة قلب حيال الخطوب الجسام ، فيحاولون تذليلها بعقول لم يذهب بها الهلع ، ولم يؤثر فيها الذعر . ولا عجب بعد ذلك أن يلين لهم ما استعصى على غيرهم ، وأن يبلغوا ما حاولوا أن يصلوا إليه بأسرع مما وصل إليه سواهم (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد الخامس ، ص : ٢٣١ ، سنة ١٣٥٣ هـ .

رمضان شهر الصيام

نحن اليوم فى مستهل رمضان ، وهو الشهر الذى أُمرنا أن نقوم فيه بفريضة الصيام ، وهى أحد أركان الإسلام الخمسة .

والصيام ، كما يدل عليه اسمه وكما فهمه الذين فرض عليهم : رياضة دينية ، لا متعة بدنية ، وهى ككل العبادات الإسلامية ، قصد بها رفع الإنسان عن حضيض الحيوانية ، إلى المستوى الذى يليق بمواهبه الأدبية . فكل ما يبطل هذه الثمرة المرجوة منه ، أو ينقص منها ، يعتبر عملا معاكسا للمرامى التى قصدت من إيجابه .

ونحن إذا رجعنا إلى سيرة النبى ﷺ وسيرة أصحابه ، تحققنا أنهم كانوا يعتبرون رمضان شهر إمساك عن الفضول من جميع الضروب ، ومهلة تَطَهّر وتنزّه عن جميع الكدور الجسدية والنفسية .

لعل قائلا يقول : ما للدين وأمر التغذى ، وهو وضع طبيعى ، القصد منه إمداد البدن بما يحتاج إليه من المواد التى تدثر فيه بسبب الجهود التى يبذلها فى المحاولات المختلفة ؟

نقول : إن حكمة تدخل الإسلام فى أمر التغذى ، أن الجسم والروح مترابطان فى هذه الحياة ، والروح جوهر كريم لا تكدره الأعراض ، ولكنه مودع فى هذا الغلاف المادى ، وهو الجثمان ، لا يسمح له أن يتصل بالوجود إلا من خلال الحواس التى جعلت فيه ، ولا أن يدرك منه ما يدركه إلا بواسطة المادة المخية ، التى جعلت أداة للإدراك . ولما كان هذا الجثمان مخلوقا من التراب فهو عرضة لكل ما يعتور الأجساد المادية من الآثار ، وأشد ما يصيبها منها ما ينصبّ عليها من ناحية الغذاء . لذلك كانت حاجة الإنسان ماسة إلى تعهد جسده بالمطهرات والمزكيات ، وليس منها ما هو أفعل فيه من الصيام ، وتدبير ما يحتاج إليه من الطعام .

نعم الصيام ، أما سمعت أنه قد تقرر علميا أن الأجساد البشرية متى لم يراع فى تغذيتها الاعتدال ، وتخيُّر ما يناسبها من المواد ، فسدت أعضاؤها ، واستدت أوعيتها ، وتصلبت شرايينها ، وتضخمت أجهزتها ، باكتسائها بالمواد الشحمية ، وشحن دمها بالمواد الأجنبية عن البنية ، وترسبت على جدران خلاياها ، وسببت لها أعراضا ثقيلة من الألم ، والإعياء ، والترهل ، وضعف الذاكرة ، وضلال المشاعر ، وعدم الاحتمال ؛ وتعدت هذه المواطن المادية إلى الصفات الأدبية فضيقت الخلق ، وولدت الضجر ، وسببت المالنخوليا والحمق ، وأغرقت فأحدثت اليأس ، وقد تسوق إلى الانتحار ؟

رأى العلماء أن الإنسان متى وصل إلى هذه الحالة أو بعضها ، كان أحوج ما يكون إليه الإمساك عن الطعام أياما متوالية ، بل أسابيع ، لتزايل أعضاءه هذه المواد الدخيلة ، لأنه إذا لم يعامل علله هذه بالإمساك عن الطعام ، كان ما يتناوله من الطعام مدعاة لبقاء تلك المواد فيه ، فلا يشفى مما يشعر به ، ولو تعاطى كل عقاقير العالم ، بل هى تزيده خبالا على ما لديه من الخبال [1] .

نعم إن السواد الأعظم لا يصلون إلى هذه الدركة من الانحطاط البدنى ، ولكنهم لا يخلون قط من الأمراض والأعراض التى تسببها لهم الأغذية ، فهم فى حاجة ماسة إلى الصيام وتدبير الغذاء .

وقد شرع الإسلام هذا الصيام لهذا الغرض ، فهو رياضة جسدية ، يقصد بها تطهيره من المتخلفات الغذائية ، التى رانت على أعضائه الباطنة ، فسببت لها أعراضا ثقيلة يشعر بها ولا يعرف لها علة ، وتقوم حجابا بين روحه وما أُعدت له من الإشراقات العلوية ، وهذا أكبر حرمان تمنى به الحياة الإنسانية ، التى خلقت لتحقق موعود الله من الترقيات الصورية والمعنوية .

---

(١) الخبال لغة : الفساد يكون فى الأفعال والأبدان والعقول . وهو أيضا : النقصان والهلاك والسم القاتل .

الصيام فى الإسلام وإن لم يكون إمساكا مطلقا عن الطعام أياما متوالية ، كما ينصح به العلم فى الأحوال الثقيلة ، فإنه يهيىء للبنية فترة طويلة من خلاء المعدة تتمكن فيها حركة الحياة من تصريف جزء من المتخلفات الضارة للأغذية ، وبتوالى هذا الإمساك ثلاثين يوما متوالية ، يتخلص الجثمان من جزء عظيم من تلك المتخلفات فيشعر بحياة جديدة .

هذا بشرط أن لا يُعَقب هذا الإمساك الطويل عن الطعام كل يوم بأكلتين ضخمتين يفتنُّ فى تنويع ألوانها ، ما يشاؤه له النهم الذى اعتاده فى حياته العادية ، فيصبح الصيام عليه شرا وبيلا ، ولا يجنى منه ما يرجى أن يجنيه من الفوائد المادية والمعنوية .

نعم إن الناس اعتادوا متى جاعوا أن يتشهوا ضروب الأطعمة ، من العجينيات والحلوى والبقول والمتبلات والمخللات ، وأن يندفعوا فى التهامها متى غربت الشمس التهام من لا يحسب لتبعات الأغذية حسابا ، حتى إذا انتهوا من الأكل أدركهم من الثقل ، وتراخى الأعضاء ، وخمود العقل ما يدرك المفرطين ، وكان يجب أن يدركهم نقيض هذه الأحوال ، من نشاط الجسم والعقل ، وانبساط النفس . وبالإدمان على هذه الحالة ثلاثين يوما متوالية يخرج الصائمون وهم فى حاجة إلى اللجوء إلى المستشفيات ، وكثير منهم يصاب بأمراض عضالة لم يكونوا يشعرون بها من قبل .

ونحن لأجل أن نبين للقارىء ما يجره النهم ، والجهل بدستور التغذى على الصحة ، وما يجلبه من الويلات على الحياة ، نبين فى اختصار ما لا يسع إنسانا جهله من فلسفة التغذى فنقول :

المواد المائعة والجامدة التى يتناولها الإنسان فى غذائه ، لا تخرج فى تركيبها عن كونها إما مركبة من ثلاثة عناصر : (الأوكسيجين والايدروجين والكربون) ، وإما من أربعة عناصر : (الأوكسيجين والايدروجين والكربون والأزوت) .

الطائفة الأولى من هذه الأغذية : تدعى المواد الاحتراقية ، ومهمتها أن تحترق فى خلايا الجسم فتؤتيه بالحرارة الغريزية وبالقوة الضرورية ، وهى كالمواد الدهنية والسكرية والنشا ومح البيض .

والطائفة الثانية من الأغذية : تدعى المواد الأزوتية أو الزلالية أو البروتينية ، وفائدتها إيتاء الجسم بخلايا جديدة بدل الخلايا التى تدثر منه بالجهود اليومية ، وهى مثل زلال البيض والجبن واللبن والفول والعدس وما إليها .

إذا علم الإنسان ذلك ، وجب عليه أن يعلم بجانبه أن البنية الإنسانية تحتاج إلى مقدار (معين) من كل منها لا إلى أكثر منه ، وأن كل زيادة عن الحد المقرر يلقى بها الإنسان إلى معدته تستحيل إلى مادة سمية تتسرب إلى الدم فتسمم الأعضاء وتفسدها .

هنا يصطدم علم التغذى وعقيدة العامة اصطداما مروعا ، يصرع فيه عدد لا يحصى من الناس كل يوم . ذلك أنهم يزعمون أن التغذى ما دام يؤتى الجسم بالمواد الضرورية له ، ويولد له القوة ، فالإكثار منه يزيد فى تلك القوة ؛ على حين أن العلم يقرر أن كل زيادة عن الحاجة فى التغذى تضعف الجسم وتوقعه فى شر عظيم .

ولكن للعلم هنا فى موضوع هذه الزيادة تفصيل : ذلك أنها لو كانت من المواد الثلاثية العناصر ، لم تحدث تسمما ولكنها تحدث تشحما ، فيتضخم الجثمان ، وتكتسى أعضاؤه الباطنة بطبقات كثيفة من الدهن فلا تكاد تؤدى وظائفها إلا ببذل جهد كبير . وهذا الجهد يشعر به صاحبها فيتعب من أقل حركة ، ويعتريه البُهْر ، وخفقان القلب ، وضيق النفس ، ولا يعود إلى راحة نسبية إلا بعد مرور وقت يمضيه فى الهدوء .

وأشد ما يصيب هذه الأعضاء يقع على القلب ، وهو أشرف عضو فى الإنسان ، دائم الحركة لو وقف بطلت بوقوفه الحياة ؛ فتخيلْ عضوا هذه مكانته ، يضطر للحركة فى أغلفة متراكبة من الشحم أحاطت به من جميع الجهات ، فتراه يجاهد مجاهدة المستبسل ليؤدى وظيفته بكل مشقة ، وصاحبه غافل عن هذا الأمر الجلل ينظر إلى بدانته فيفرح بها ، ويسجل بالفخر كل رطل يزيد على وزنه ، ويتجاهل أنه تحت إصر هذه البدانة أصبح عاجزا : لا يستطيع أن يقاوم عاديا ، ولا أن يرفع ثقلا ، ولا أن يصعد سلما عاليا ، ولا أن يسرع الخطى فى مهم ؛

فمثل هذه الحالة يجب أن تعتبر عجزا ، وهى فى الرجال أقبح منها فى النساء ، فمن بلى بها فليبادر بالتخلص منها بالصيام الصحيح ، والإقلال من المواد الثلاثية العناصر .

أما الزيادة من المواد الرباعية العناصر ، فهو يؤدى إلى التسمم لا محالة ، لأن الزائد من هذه المواد يستحيل إلى بولينا ، وهذه البولينا إذا أضيفت إليها ذرة واحدة من الأوكسيجين استحالت إلى حمض بوليك ، وهو سم قاتل لا يجوز أن يبقى فى الدم بحال . وهو يخرج بالمعالجة الحكيمة ، بشرط أن يقطع عن البنية المدد الوارد إليها من الخارج ، وذلك يكون بالاقتصار على ما هو ضرورى لها من تلك المواد .

وقد بحث العلماء فى المقدار الواجب تعاطيه منها ، فقدر أولا بنحو ١٥٠ غراما كل يوم ، ثم تبين أن هذا القدر كبير ، فأسقط إلى ١٠٠ غرام ، ثم إلى ٨٠ ، ثم رئى أخيرا أنه يكفى أن تكون ٢٥ غراما . وممن عنى بهذا التقدير من كبار العلماء الدكتور هندهيد الدانمركى ، وقد سلك فيه طريق التجربة ، فكان يختار رجالا من الذين يعملون بأجسادهم أعمالا عنيفة ، ويكيل لهم الأطعمة ويزنها بحيث لا يجاوز مقدار ما يستخرج منها من المواد الرباعية العناصر ٢٠ أو ٢٥ غراما ، فرأى أن هذا القدر قد كفاهم ، واستدل على ذلك ، بعد تجربة عام كامل ، بجودة صحتهم ، وقدرتهم على الاستمرار على العمل بدون كلل ، وانتهى من تجاربه بالنتائج الآتية :

(**أولا**) أن المادة الزلالية الموجودة فى الأغذية النباتية أفضل من المادة الزلالية الموجودة فى الأغذية الحيوانية .

(**ثانيا**) أن الأغذية التى تقل فيها المادة الزلالية تزيد فى قدرة الجسم على احتمال المشاق .

(**ثالثا**) أن عدد الوفيات بأمراض الكبد والكليتين والأمعاء يبلغ بين سكان المدن نحو أربعة أضعاف ما يبلغه بين الفلاحين الذين معظم طعامهم من الخبز والبطاطس والمواد الدهنية .

وقال : إن العرب الذين يكتفون فى طعامهم بالخبز والتمر فيهم من صلابة العود ، وشدة الصبر على التعب ما يدهش الأوربيين . وإن جراية جنود السخ من الهنود ،

وهم من أشد جنود الدنيا ، لا يجاوز فى اليوم كأسين من اللبن و٢٥ أوقية من الخبز (أى نحو نصف أقة) ، وأوقيتين من الزبد (وهما يساويان نحو ٢٥ درهما) ، وأربع أواق من الفاصولياء (أى نحو ٥٠ درهما) وخمس أواق ونصف من البطاطس (أى نحو ٦٢ درهما) ، وهم لا يأكلون اللحم إلا مرتين أو ثلاثا فى الشهر .

وقد امتحن علماء آخرون النتائج التى وصل إليها العالم الدانمركى ، نخص بالذكر منهم الأستاذ تشتندن الانجليزى ، وأجرى هذه التجارب على نفسه وعلى غيره فاقتنع بصحة ما ذهب إليه الدكتور هندهيد .

هذا رأى العلم فى مقادير الأغذية الضرورية للإنسان العادى .

وقد ذكرنا البدانة وضررها ، وعزوناها إلى الإكثار من تعاطى المواد الثلاثية العناصر ، ونستدرك هنا على ذلك بقولنا : إن من الناس من يفرط فى الأكل إلى حد التخم ، وهو نحيل الجسم . وقال الدكتور جاستون دورفيل فى كتابه صناعة إطالة الحياة :

« إن جميع المفرطين فى الأكل ليسوا ممتلئين شحما ، فمنهم من يكونون على العكس نحاف الأجسام ، ولكن القسمان يستويان فى الهلاك بسرعة ، وإن جهل كل منهما ما يؤديه إليه سم الأغذية من سوء المصير .

ثم قال :

« من الناس من يفرط فى الأكل ولا يصيبه أذى ، بل تظهر عليه دلائل الصحة الكاملة ، فترى وجهه موردا ، ومحياه مشرقا ، فيعيش السنين الطوال لا يشتكى أقل وجع ، ثم لا يلبث أن تسمع بأنه قد مات وهو فى عنفوان القوة ، فتدهش لذلك ولا موجب للدهش ، فإن هذا الأكول لم يكن فى جسده مراقب عتيد يعاقبه على كل إفراط وتفريط ، فتمادى فى شأنه فتراكمت عليه السموم فقتلته ولا كرامة » .

وبعد :

فنحن اليوم نؤدى فريضة الصيام ، وقد جعله الله وسيلة لتزكية أجسامنا وعقولنا وقلوبنا من طريق الإمساك عن الأطعمة التى تهلكنا على النحو الذى بينته

فى هذه العجالة . فإن احتال محتال على الإبقاء على العادة السيئة التى تسربت إلى المسلمين ، فقلبت شهر الرياضة والنزاهة إلى شهر نهم وقصف [١] ، فزعم أننا أمرنا بالإمساك عن الطعام ساعات معينة و لم نؤمر بما يعدو ذلك من الإقلال منه ... قلنا له : إن الاعتدال فى الطعام ، وتحرى القدر الضرورى منه لحفظ الحياة ، وعدم تعدى ذلك الحد إلى الإسراف ، أمر مأمور به فى الإسلام فى الشهور العادية ، فوجوبه فى شهر العبادة ألزم . ألم يقل الله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [٢] .

أو لم يقل النبى ﷺ : « حسب أحدكم من الطعام لقيمات يقمن صلبه » ؟ أو لم يقل أيضا : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه » ؟ أفكان الله ورسوله يأمراننا بالاعتدال فى الطعام فى الأيام العادية ، ويبيحان لنا الإسراف فيه فى شهر النسك والعبادة ؟

فلننتهز هذه الفرصة السانحة لنا فى هذا الشهر الكريم ونقفو أثر النبى ﷺ ، وأثر أصحابه ، لنصل إلى بعض ما وصلوا إليه من كرامة الحياة ، وعزة الوجود ، وشرف البقاء ، والله ولى المحسنين [*] .

* * *

(١) القصف : اللهو واللعب والتوسع فى الطعام والشراب .

(٢) سورة الأعراف : ٣١ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، ص : ٦٩٠ ، سنة ١٣٥٨ هـ .